تلقي لسانيات النص في الدرس اللساني العربي المعاصر
- المصطلح والاتجاهات-

الدكتورة: نعيمة سعدية
قسم اللغة العربية و أدابها
كلية الآداب و اللغات
جامعة بسكرة- (الجزائر)

ملخـــص:

تهدف هذه الدراسة إلى معالجة مسألة نقل المفاهيم اللسانية النصية خاصة من النسق اللساني الأوربي إلى النسق اللساني العربي، والمشاكل التي تعترض هذه العملية في المجال ترجمة وتأويلا، في سبيل تحقيق مقارنة نسقية أساسا ومعالجة ابستيمولوجية للنسق المصدر للمفهوم، والنسق الهدف الذي يشغل ذلك المفهوم.

وغايتنا من هذه المقاربة والمراجعة الجادة لذواتنا المعرفية اللسانية النصية، هي التصالح مع المنهج العلمي الرصين في المقاربة الموضوعية والجدية للاتجاهات اللسانية النصية، كون المنجز اللساني النصي مساحة معرفية يقف فيها القارئ ليسأل ويبحث في أمرين جوهريين: كيف تلقى الباحث العربي الاتجاه اللساني النصي؟ وماذا قرأ فيه ليبدع عليه منجزه؟ ومن ثمة هل هذا المنجز عربي خالص أم تمثل لمنجز غيري؟

Abstract:

This study aims to address the issue of the transfer of linguistic concepts scripts especially Layout lingual European to the Arab linguistic lines, and the problems that this process encountered in the field of translation and interpretation, in order to achieve comparable systemic basis and address Epistemology to format the source of the concept, and the pattern target which holds that concept.

Our goal of this approach and review Avenue to ourselves knowledge of linguistic scripts, are reconciling with the sober substantive approach and seriousness of the trends of linguistic scripts scientific method, the fact done lingual text Arab cognitive space where stands the reader to ask and looking at two things substantial: How the Arab researcher received lingual direction the script? Why read it and to innovate it completed? And there is this done Arabic sincere or else done to represent west?

تمهيد :

" إن المغامرة بإقامة فرضية قوية
وإن استدعى الأمر تحويرها بعد ذلك
أفضل من عقم تفرضه الرهبة والحذر" / أبوس تال(Apostel)

تأسست لسانيات النص علما قائما على استثمار الكثير من الأفكار البلاغية، وأفكار اللسانيات، لا سيما ما ارتبط منها باللسانيات التوليدية، خاصة نظرية الرابط العاملي وكل ما يمكنه أن يساهم في تحقيق الهدف؛ المتمثل في البحث عن عمق النص ومغزاه قراءة وتأويلا؛ إذ لا وجود للسانيات نص دون مستوى نحوي يشمل النص لا الجملة في تحليل البنى النحوية البنيوية، و بحث وظيفتها الجمالية، وعلى الدارس اللساني أن يقتنع بأن النص جدير بالدراسة، من حيث الوقوف على آليات الربط والترابط المتوافرة فيه، كما حددها فان ديك(1972)"1. وعليه، فلا يجب الفصل فيها بين الشكل والمحتوى، أو المبنى والمعنى؛ حتى لا يؤدي ذلك إلى أحكام متعسفة ونتائج مشوهة، وهذا لا يتأتى إلا بتجزئة النص إلى عناصر وتقسيم العناصر إلى جزئيات وتحليلها لغويا؛ ليقف الدارس على مستوى معين من المتعة والجمال في النص كوحدة دلالية متماسكة.

لتقوم لسانيات النص- بذلك- على المعيار الإحصائي، وهو أحد مقتضيات البحث العلمي، تحقيقا للدقة والنتائج الموضوعية ذات الوجهة النسبية، فتحقق بذلك تحليلا موضوعيا يقارب الدقة والعلمية؛ كما أن المعالجة الموضوعية للنص-من هذا المنطلق- عبارة عن تقنيات منهجية معاصرة في العلوم التطبيقية العلمية، وهي كفيلة بأن تحد من الذاتية إلى أقصى الحدود، استنادا إلى طبيعة العلامة اللغوية المحسوسة ودقة الوسائل الإجرائية والمنهجية في التحليل اللساني للنص، فعملية المقاربة ومادية النص الأدبي تساعدان على التقصي، والسعي إلى توسيع فضاء الموضوعية في الممارسة اللسانية النصية، فيتأكد تداخل ما هو نحوي ودلالي وأسلوبي وتداولي وجمالي للوحة النصية .

ومصطلح"لسانيات النص "(Text Linguistics) في الإنجليزية و(Textuelle linguistique) أو(Linguistique de texte) في اللغة الفرنسية،(Text

(Textwissen schafft)(Linguistik أو (linguistische textanalyse) في اللغة الألمانية،كما تقدم به كلاوس برينكر (Klaus Brinker) لم يعرف التوحيد في الدراسات والأبحاث الغربية الأوربية وحتى الأمريكية؛ لا من حيث المصطلح، ولا المفهوم، ولا حتى التنظير، ولا حتى الممارسة التطبيقية الإجرائية، على الرغم من الإجماع الذي لاقته بعض المصطلحات في هذا المجال عند بعض من الدارسين والمترجمين؛ كما قوبل بمصطلحات أخرى (Discours Analysis) تحليل الخطاب، وتحليل النص (texte Analysis)، وعلم النص (Science de texte) والنصية أو النصيات (textually)، بالعودة إلى الآليات الإجرائية التي تقرّ بنصية أي نص تحقق وجوده بالفعل وغيرها، وهي مصطلحات دلت على تشعب هذا المجال، في اللغات المختلفة .

الأمر الذي انعكس في الدراسات والأبحاث العربية التي تلقت المصطلح المركب وقابلته بزخم من المصطلحات المترجمة، يضاهي الصورة التي جاء بها في أرض ميلاده، حيث اضطربوا في ترجمته مصطلحا ومفهوما، من خلال المؤلفات والأبحاث العديدة، النظرية منها والتطبيقية، والتي ضربت في جذور المعرفة الخلفية والأرضية المعلوماتية للمترجم أو الدارس العربي، من أجل تقديم مفهوم متقارب أو شبيه، يعبر عن هذا المجال، ويتناول النص ونظرياته وآليات إنتاجه وتنظيمه وتلقيه، في عملية نقل وفهم الأطر النظرية، التي تعمل على تثبيت المفاهيم وطرق الممارسة والتحليل؛ ما يجعل القارئ الباحث يلمسه في مؤلفاتهم وأبحاثهم لهذا المجال.

أولا. لسانيات النص: صراع المصطلح والمفهوم

انتقل مصطلح (Text Linguistik) إلى العربية-متداخلا مع المصطلحات الأخرى التي تفاعلت معه، فتعددت واضطربت عمليات ترجمته عند الباحثين، بل وأحيانا عند الباحث الواحد، لأن الترجمة هي السبيل الوحيد، لتلقي مثل هذه الفروع اللسانية، وهي من يضمن كشف الفكر الإبستيمولوجي للسانيات النص كفرع ألسني جديد، وعلى الرغم من كونها عملية معقدة تعمل على نقل أفكار من لغة إلى أخرى، تساعد على معرفة الآخر

فالمترجم هو من يقوم بإعادة بناء نسق العلامات والإشارات؛ لأنه يترجم المصطلح موظفا المعارف والمهارات، ورواسب مكتسبات سابقة، وأحكام معيارية يمليها التهيؤ الإدراكي والمفاهيمي له؛ فالترجمة نشاط إبستمولوجي، وعملية ذهنية وإدراكية معقدة تتطلب ثقافة موسوعية. يقول جورج ستا نير (George Steiner): "إن الترجمة الحقيقية أي تأويل الدلائل اللغوية في لغة ما بواسطة الدلائل اللغوية في لغة أخرى، هي حالة خاصة ومعمقة لعملية التواصل والتلقي في أي فعل لغوي إنساني"2 .

ونرى في هذه الدراسة، أن لسانيات النص بصفتها فرعا من اللسانيات قد انتقلت إلى الفكر العربي بوساطة الترجمة، ولعل أول إشارة إلى لسانيات النص أو تحليل الخطاب عموما، أوردها بإيجاز الباحث نهاد رزق الله، وضمنها في مقدمة كتابه، مهاجما هذا التيار الجديد الذي يدعو-وفق رؤيته- إلى تجاوز التحليل المؤسس على الجملة كممثل شرعي ووحيد، وكأكبر وحدة لسانية في المنظومة اللغوية؛ إذ يقول: "جاء تحليل الخطاب هزيلا جدا لأنه اكتفى بمعنى التعبير من ضمن النص المغلق، و أعطى كل المعاني لأي نص انطلاقا من فرضيات المحلل وخلفياته"3 .

ولعل ظهور مثل هذه الموجة من الهجوم العلمي، محافظة على النموذج القديم المؤسس الواضح المتبع، راجع إلى أن الرؤية لم تكن اتضحت بعد، نظرا لابتعاد الدارسين -أنصار هذه الموجة الهجومية- عن الممارسات العلمية اللسانية على النصوص، خاصة البنيوية منها والشعرية أيضا؛ لاكتفاء أصحابها بنماذج جملية نظرية/معيارية تفي غرضهم من الدراسات التي ينجزونها.

وبعد سنة من كتاب نهاد رزق الله، يبدأ الدارس سعيد حسن بحيرى، في نشر أبحاثه: مقالات وكتبا، والتي تحاول نقل هذا الاتجاه، وتشير بطريقة أو بأخرى إلى أبحاث أوربية في هذا المجال، خاصة الألمانية منها، ويقر فيها بإعجابه بكتب الباحث الألماني فان ديك المؤسسة لهذا العلم (1985)، وهو التاريخ عينه، الذي يشير به الدارس اللساني"سعيد يقطين" إلى بداية احتكاكه بجهود "فان ديك" المؤسسة للسانيات النص كفرع يحاول تقسيم

النص وتجزئته بغية تحليله؛ يقول سعيد يقطين: "كان سعي فان ديك إلى إقامة تصور متكامل حول "نحو النص" ملحا منذ 1972، حيث ظهر كتابه "بعض مظاهر أنحاء النص"، وظل مستمرا إلى 1977 مع كتابه النص والسياق، وحتى كتاباته الأخيرة، حيث بدأ ينطلق من تحليل سيكو-لساني للخطاب والنص رابطا بين الدلالة والتداولية، صيرورة غنية متشبعة، لم نتمكن من الإطلاع عليها إلا منذ 1985"4. بيد أن سعيد بحيرى يشير في آخر مترجماته التي أصدرها حول لسانيات النص، أو تعريفه بمفاهيمها، إلى عام 1979م، حين اعتمد على مقالة برينكر التي تصدرت كتاب بتوفي المعنون" حول تحديد موضوع علم لغة النص ومهامه"5، وفي ترجمته لكتاب كوزريو(E. Coseriu)(1980) ودريسلر(W . Dressler)(1972)، وسونيسكي (Sowinsk .B) (1983)، وهارتمان (P. Hartmann) (1968)، وهارفج(Herweg) (1972)، وغيرها من الدراسات التي اعتمدت المصطلح .

ومن هذا المنطلق، يترجم مصطلح(texte linguistics)أو(text Linguistik) إلى: علم النص، نحو النص، علم لغة النص، آجرومية النص، علم اللغة النصي، علم النصية، علم النصيات، علم دلالة النص، التداولية النصية، الألسنية النصية، التحليل اللغوي للنص ولسانيات النص، هذا الأخير، الذي نراه الترجمة الأنسب مصطلحا ومفهوما، بالنظر إلى المصطلحات الأخرى، كونه -في نظرنا- مصطلحا جامعا يعكس الأطر المعرفية والآليات الإجرائية للعلم، كما يعكس الاهتمامات بنموذج النص داخل اللسانيات، وهو المصطلح الذي اعتمده الباحث "محمد خطابي" في كتابه " لسانيات النص-مدخل إلى انسجام الخطاب سنة 1991" وما اعتمده " جميل عبد المجيد" في كتابه: "البديع بين البلاغة العربية واللسانيات النصية"، في حين يعتمد الباحث اللساني والمترجم "سعيد حسن بحيرى" مصطلح علم لغة النص أو علم اللغة النصي-وقد سبقه في التعامل مع هذا المصطلح "محمود جاد الرب" في ترجمته كتاب برند شبلنر سنة 1986- كما اعتمد بحيرى على مصطلح "التحليل اللغوي للنص" الذي قدمه لبرينكر (K. Brinker) في كتابه(Linguistisch text analyse- 1997)، مصطلحا يقابل به هذا الفرع الألسني الذي عني بالبحث في

قضايا النص.

ويتخذ الدكتور سعيد حسن بحيرى مصطلح"علم النص"ترجمة لمصطلح (Textwissen schafft)* من كتابين عالجا أبحاث وموضوعات لسانيات النص، وأقدما على إبراز طرق بناء النص ونظرياتها والعلاقات النحوية والدلالية والتداولية التي تعمل على تنظيم النصوص، ووصفها وتصنيفها لقراءتها، ومن ثمّ تأويلها :

والكتاب الأول لفان ديك(Van Dijk)، والموسوم بـ" Textwissenschaft; " eine interdis ziplinaire Einfuhrung Deutsch.. ,1980، أي "علم النص- مدخل متداخل الاختصاصات-"؛ وفيه يقول ديك:" ومن المفيد أن يوجد الاستعمال اللغوي والاتصال والتفاعل في شكل نصي، خاصة أن تحلل في علم للنص متداخل الاختصاصات تحليلا منظما أشكال نصية وأبنية نصية مختلفة و بحث شروطها ووظائفها وتأثيراتها المتباينة"6؛ إنّ البحث في قضايا لسانيات النص، هو ما أعلنه سعيد حسن بحيرى في مقدمة الكتاب: "والحق أنه بدأ تعرفي على مادة الكتاب، سنة 1985 حين بدأت أتحول إلى مجال علم اللغة النصي أو علم لغة النص، وأقرأ فيه، وأتعمق في مفاهيمه واصطلاحاته وتصوراته وأفكاره ونظرياته؛ إذ يعد فان ديك واحدا ممن شغلت بكتابته الواضحة العميقة في هذا التخصص"7 .

أما الكتاب الثاني؛ فهو لزستيلاف واوزرنياك (Zdzislaw wawrzyniak) في كتابه(eine interdis Textwissenscheft)، أي "مدخل إلى علم النص –مشكلات بناء النص 1980" وهو البحث كذلك في قضايا لسانيات النص، والتفصيل فيها والتطبيق على آلياتها الإحالة – الاستبدال .. الخ، وفيه قابل المترجم المصطلح السابق بعلم النص اللغوي، يقول واورزيناك:" ونطلق على علم النص اللغوي مصطلح علم النص (Text wissenscheft)"8 .

أما تمام حسان فيعتمد مصطلح "لسانيات النص" مصطلحا مقابلا لما أسماه روبرت دي بوقراند (R.A Debeaugrande) في كتابه " Text discours and Process " أي "النص، الخطاب والإجراء"، texte linguistics)، على الرغم من إقراره في فهرس الكتاب مصطلحا آخر، وهو "لغويات النص"9.

والملاحظ في كل هذه الكتب المترجمة وغيرها إجماع بعض الدارسين على بعض المصطلحات والمفاهيم، مثل: النص، معايير النص، النصية، والاختلاف في أخرى إلى حد التضارب، واعتمادها في التطبيق، ما يدفعنا إلى القول إن ملامح لسانيات النص الغربية: مصطلحاتها، ومفاهيمها، وقضاياها قد انعكست على نظيراتها العربية وفق مبادئ الترجمة والتبعية والسير على الخطى؛ إذ اعتمد كل دارس عربي آراء نظير الغربي، في مؤلفاته النظرية وممارساته الإجرائية، واعتماده مفاهيمه، ليكون به يدا ساحرة، تنقل أفكارا وتطبيقات قيلت في لغة أجنبية (ألمانية – فرنسية –إنجليزية)، فيقوم بتطويعها في نظيرتها العربية؛ وعليه أن يحسن صوغها في تجربة شخصية عربية، ومزجها بأرضية معرفية خاصة ومهارات لغوية إدراكية اجتماعية، لابد لها وأن تمزج بروح المفكر الغربي في أبعادها النظرية وحتى ممارستها الإجرائية والمصطلحاتية -في بعض الأحيان- وروحه كمفكر عربي أخذ على عاتقه مسؤولية نقل المعرفة، على الرغم من كون المفهوم كيانا كليا يجمع كل مكنوناته أو أجزائه، أو أنه كل مجزأ يلم كل أجزائه ويحركها في نسق واحد بتوجيه قدراته الداخلية للتعبير عن فعل يجد استجابته من كل تلك الأجزاء"10؛ وهو ما تجسد في التناول العربي وحتى الغربي، والذي جعل من مفهوم الاتساق (Cohésion) أو الانسجام(Cohérence)، وهي مفاهيم جزئية، أساسا لفهم لسانيات النص، والتعامل مع منهجها في سبيل مقاربة النص، لتتفرع الدراسات النصية في الدرس اللغوي العربي وتتشعب تشعب الدرس اللغوي المعاصر في مهده الأول.

وبعد أن اتضحت معالم لسانيات النص في الدراسات الغربية، وبعد أن تناقلت الجهود العربية أهم مؤلفاتها، كان لابد من ظهور دراسات عربية رائدة –تنظيرية وتطبيقية- تبلورت

في الدراسات والأبحاث الغربية، و في مجالها وتحت ظلالها؛ فحاولت تطويع ذلك بما يخدم اللغة العربية، والنص العربي، كوحدة لغوية أساسية فيها؛ ومنه تبحث عن الأبعاد التأصيلية –مصطلحا ومفهوما- في كتب البلاغة العربية والتفسير، والنحو أولا، وسنحاول الوقوف على هذه الجهود، ونعرض آراءها البارزة من أجل كشف حلقة التواصل بين لسانيات نص غربية ولسانيات نص عربية، ومدى استيعاب هذه الأخيرة لما جاء في الأولى؛ ليكون كل ذلك صرحا تبنى عليه دراستنا وآراؤنا المتواضعة. ويمكن أن نجعل هذه الجهود العربية في اتجاهات أربعة، ساهمت بشكل فعال في تشكل صورة لسانيات نصية عربية، وتحديد أطرها، ومصطلحاتها في العربية، ومفاهيمها وآلياتها الإجرائية، مجاوزة–بذلك-كل ما حدث من اختلاف وتمايز.

ثانيا - الاتجاهات اللسانية النصية في الدرس العربي :

1. علم النص: يفهم هذا الاتجاه على أنه "نظرية وتطبيق في مجال إعادة التكوين العلمي للنصوص"11، وهو البحث في قضايا الدلالة الكلية للنص؛ باعتباره بنية كبرى شاملة ذات طقوس ومستويات عديدة، لا يجب إهمالها في سبيل فهم النص وتأويله، فكل ما أنجزته اللسانيات يدخله علم النص في نظامه، كما يجعل القارئ يرى النص اللغوي من جميع جوانبه دفعة واحدة؛ ليحمل تلك المنجزات إلى ذروة جديدة؛ من هنا يدرس علم النص المنظور وغير المنظور من البحث النصي في ذهن المتلقي لأن"النص محاط بسياق مثل السياق الكوني الذي يحيط بالشمس ومجموعتها12.

وبدايات هذا الاتجاه مع الدارس الناقد محمد العبد في كتابه" اللغة والإبداع الأدبي" سنة 1989، الذي يعد حقيقة البنية الأساسية للسانيات نص عربية، في عرضه لمفاهيم النص وخاصة التلاحم فيه، ومناقشتها وربطها بعامل الإبداع، فلكل نص وحدة موضوع تحدد مقصده باعتباره تكوينا حتميا يحدد بعضه بعضا، وتستلزم عناصره بعضها بعضا، لفهم

الكل (النص الأدبي)13؛ لأن القارئ لا يجب أن يتحسس ثغرة أو فراغا أثناء قراءته للنص المتماسك دلاليا، والذي يهدف إلى توصيل المعلومات إليه .

كما ينطلق الدكتور "محمد العبد" من فكرة أن "علم لغة النص تطوير وتوسيع لعلم لغة الجملة، معبرا عن استطاعة هاريس بمناهجه النصية المبكرة التي اعتمدها في(تحليل الخطاب) تطوير المناهج البنائية في تحليل الجملة"14؛ ليبرز سيره على الخطى ذاتها من أجل تسطير منهجه في التعامل اللساني للنص الأدبي، هذا القرص المضغوط المعقد في تكون أجزائه وبنياته الداخلية والخارجية؛ لأن العلاقة قد ازدادت توطدا بين علم اللغة والدراسة الأدبية، في ضوء لسانيات النص، التي قامت فكرتها على أن النص هو الوحدة الأساسية في الوصف والتحليل اللغويين، على الرغم من رؤيته أن الجملة مازالت أكبر وحدة للتحليل، و" هي المقصد في القضية التحويلية على أنها مجموعة من الجمل التي ينتجها النحو"15. وهذا ما أفرزته البلاغة الجديدة وشعرية تودوروف وجاكبسون، وأدبية شبلنر، و برينكر التي ضربت بشعاعها في الدراسات النقدية اللغوية العربية .

وعلى هذا الأساس، يحاول الدكتور "صلاح فضل" من أجل تقديم بلاغة جديدة للخطاب، وعلم النص، المزاوجة بين اللسانيات و النقد الأدبي في كتابه" بلاغة الخطاب وعلم النص" 1992، ليتشكل هذا الاتجاه ويتأسس في اللغة العربية، كما تأسس في الدراسات الغربية؛ فيستعرض بلاغة الخطاب في إطار أبعادها المعرفية الجديدة الناتجة عمّا أسماه "تحول الأنساق المعرفية" التي تتناول اللغة "ونظرية اللغة" بالضبط والتحديد فبين "علم النفس" وعلم الجمال" و"البلاغة البنيوية" و"التحليل التداولي" و"علم السرد" و"السيمياء"، يؤسس صلاح فضل فرضياته المنهجية، التي قادته من القاعدة إلى الظاهرة في اللغة العربية، في تلك الأنساق المعرفية، من أجل أن يدخل بآلياتها- حسب ما يسمح به النص المتناول- "عالم النص" وأبنية النص؛ وهي موضوع ما أسماه "علم النص".

وهو الأمر، الذي دفعه إلى استدعاء تعريف النص من اللساني، إلى البلاغي والجمالي

وحتى من علم النفسي التعبيري، واللساني النصي، بعدّه "عملا مركبا ينتمي إلى جنس أدبي محدد.. ونظام لتشفير العلامات أو مجموعاتها بمساعدة علامات أخرى ... ولغة داخل لغة تهدف إلى أداء وظائف جمالية.. إن النص هو عملية التشفير ذاتها"16، وهذا ما يتطلب فهما من خلال سياقه الإدراكي تحليلا وتأويلا بشتى العوامل: النفسية الاجتماعية الثقافية.. الخ .

ومهمة علم النص -بناء على كل ذلك- وصف العلاقات الداخلية والخارجية للأبنية النصية بمستوياتها المختلفة، وشرح المظاهر العديدة لأشكال التواصل و استخدام اللغة كما يتم تحليلها في العلوم المتنوعة. يقول "صلاح فضل": "وقد استقر هذا المفهوم الحديث لعلم النص في عقد السبعينات من هذا القرن، يسمى بالفرنسية(Science du texte) ويطلق عليه بالإنجليزية (Discourse analysis)، ولا يخرج الأمر عن هذين الحدين في بقية اللغات الحية، مما يجعل ترجمته إلى "علم النص" في العربية أمرا مقبولا، وعلى الرغم من أن مصطلح "تحليل النصوص" كان معروفا منذ فترة طويلة وكذلك عبارة "تأويل النصوص" خاصة في الدراسات اللغوية والنقدية تلك التي تعنى بالوصف المحدد للنصوص الأدبية، إلا أن علم النص يطمح إلى شيء أكثر عمومية وشمولا، فهو من ناحية يشير إلى جميع أنواع النصوص وأنماطها في السياقات المختلفة، كما أنه– من ناحية أخرى- يتضمن جملة من الإجراءات النظرية والوصفية والتطبيقية ذات طابع علمي محدد"17، والقارئ لهذه الفقرة سيتساءل: أي تحديد أمام هذا الطرح الشمولي؟

ولعل صلاح فضل في هذا الأمر، متتبع لخطى فان ديك؛ إذ يعتبر أن "علم النص" ذو طابع كلي شمولي؛ لأن "استمرار توسيع البحث من مفهوم نصي أدبي إلى مفهوم نصي عام يعني في الوقت ذاته غلبة الهوة الفاصلة بين علم الأدب وعلم اللغة، وبين علم أدب عام وعلم لغة عام-وكما لوحظ- تقتصر الدراسة اللغوية في الغالب على نحو (تقابلي) للغة"18، كما أن البحث في الأبنية النصية ووظائف النصوص بوصفها جزء جوهريا في مهارات الاتصال هي

أهم مهام هذا الاتجاه، بل أهم قضايا الدراسات اللغوية والأدبية، على الإطلاق، وهي- في ألمانيا- تحت مسمى "الدراسات النصية".

وبعدّ النص، موضوع هذه الدراسات؛ كونه "وجودا عائما، مرسلا من مبدع حر، في فضاء اللغة سابحا فيها إلى أن تتلقفه أيادي القارئين، وتأخذ في تناول إشاراته وشفراته، وفي تقرير حقيقته وأسراره"19، فإن علم النص أمام هذه القضية مطالب بدراسة لغة موضوعه ووصف كيفية بنائه، ومن ثمّ قراءته وتحليله وإدراكه، مع رصد مكوناته وخصائصها، التي استطاع من خلالها تأدية مختلف وظائفه: التعبيرية والجمالية والتأثيرية والسياقية؛ وفي سبيل الوصول إلى هذا التحديد الشمولي للنص نجد أن علم النص يضم في إطار واحد العديد من الإجراءات المنهجية الأخرى؛ اللغوية والأدبية، لأنه كاتجاه جديد سيستفيد من إجراءات كل هذه المناهج، ويضعها في إطار كلي متكامل، لا يبدو بين عناصره تنافر في الدراسة الواحدة، إذ يؤدي كل منها إلى الآخر، ويكتسب منه أساسا لوجوده، فكل تلك الإجراءات والمنجزات المختلفة تسير في اتجاه واحد بشكل متواز أحيانا، ومتداخل أحيانا أخرى، بحيث تصل في النهاية إلى "تحديد النص تحديدا شاملا"20 .

أما الناقد والدارس اللساني الدكتور حسام أحمد فرح؛ فيحاول بناء نظرية لما أسماه "علم النص"– كاتجاه لساني نصي- في كتابه "نظرية علم النص"، 1997، بل في مواضع من الكتاب هو لسانيات النص نفسها؛ حيث يبدأ بموضوع هذه النظرية، فلا يفرق بينه وبين مصطلح خطاب، حيث يتداول -تساويا- استعمال المصطلحين في ذات السياقات والمواضع في الكتاب أحيانا، ويعرف أحدهما بالآخر أحيانا أخرى، فالنص" خطاب مترابط ترابطا دلاليا وذلك باعتبار وجود سياق للموقف"21؛ ومنه يصعب فهم النص، إلا إذا تم ربطه بكل تلك الجوانب (التداولية والسياقية) التي جعلها الباحث أساس نظرية "علم النص"، فيما يمكن تقديم تفسير لكل الظواهر اللغوية في النصوص كما أن تحديد تلك الجوانب مسبقا يبين الكيفية التي عملت بها أنظمة اللغة، ومستوياتها بشكل تفاعلي متداخل عمل على خلق ترابط وتواصل مستمر بين المتوالية النصية، في بنياتها الصغرى

والكبرى- ما يدفعنا إلى القول إن علم النص في هذه الحالة، ينطلق من قضايا أساسية أهمها: كيف تستعمل اللغة لإنتاج نص سيقرأ ويدرك؟ وكيف يمكن لهذا النص أن يحقق وظائفه التفاعلية التواصلية التداولية..

وهذه نظرة-نراها- تدخل علم النص كاتجاه في مجال النظرية، بالمفهوم العلمي، ذات الفروض والعناصر المحددة والمبادئ المتناغمة؛ ويتميز بقابليته للتطبيق، وصموده عند التجريب، مع خضوعه للتعديل المستمر في ضوء الإنجازات المنهجية الأصلية؛ فيصبح بذلك طريقة في التناول التقني ومنهجا للتحليل العلمي، دون الاعتماد على مصادرات مسبقة ومعايير دائمة، لا تستمد صلابتها من البنية الأيديولوجية المغلقة، بل بتقديم فروض قابلة للاختبار، خاضعة للتعديل، منفتحة على معطيات التطور العلمي مما يجعله هيكلا متناميا لا يقوم على فراغ مثالي، هو" خطاب على خطاب".

أي أن علم النص لا مناص له من أن يسبح فوقها ويقتنص أشكالها؛ ذلك أنه العلم الذي يشكل خلاصة مبلورة لأهم ما قدمته اللسانيات وفروعها: علم الجمال اللغوي، علم اللغة الأدبي، علم النفس اللغوي...) من مبادئ وإنجازات مورست لدراسة الظاهرة الأدبية وخاصة ما أفرزته شعريتا جاكبسون وتودوروف، التي نجدها خلاصة لما أسسته كريستيفا في كتابها "علم النص"، حيث ربطته بمبادئ تواصلية، سميائية، فمنحته طابع الكلية والشمول، في: التميز بين اللغة والكلام، وتحليل آليات التلقي والتذكر واكتشاف قوانين التداعي، وعد اللغة مظهر الإبداع الأدبي، وحقيقة شعرية النص وانتقالها إلى التداولية الأدبية وغيرها من القضايا، التي استوعبها علم النص، وتجاوز كل لأمور الأخرى؛ ليتجاوز مبدأ السكونية في البنية النصية. يقول صلاح فضل: "إن المتبع لنمو الاتجاهات البلاغية الجديدة وتخلقها في العقود الأخيرة، يلاحظ تزايد الاعتراف بعدم كفاية مشروعاتها التخطيطية، واتجاهاتها الشكلية حتى الآن، مما يجعلها تمضي في تكوين مشروع البلاغة النصية، الذي يصب بدوره في مجال التوحيد بينها وبين علم النص"22 .

إنها عملية البحث عن مفاهيم وعمليات ومبادئ انتظام الأبنية النصية (اتساقا وانسجاما). وعلى هذا الأساس، ظهرت العديد من الدراسات التي تعلن انتماءها لما يسمى "علم النص"؛ فتبحث قضايا البنية العليا، البنية الكبرى، أسس الاتساق، مبادئ الانسجام، تحديد موضوع الخطاب ...، وهي منجزات نسبت إلى لسانيات النص حتى أننا نجد هذه الدراسات تساوي بين المصطلحين، كما هو عند صلاح فضل، إذ أقر بمصطلحي "تحليل الخطاب" و "تحليل النصوص"، وذات الأمر نجده عند حسام أحمد فرج الذي ساوى بشكل صريح بين مصطلحي (علم لغة النص ونظرية علم النص)، وزاد عليهما " البحث النصي"23 .

كما نشير في آخر الأمر، إلى دراسات أخرى بحثت قضايا لسانيات النص، بمسميات أخرى كنظرية النص، وتحليل الخطاب الشعري، وبلاغة الخطاب، والبلاغة النصية والتي حاولت تأسيس مشاريعها واتجاهاتها، عبر مفاهيم لسانيات النص، وخاصة الاتساق والانسجام، وما يدور في فلكهما من أسس ومبادئ وآليات إجرائية، ضمها "علم النص". الأمر الذي دفع سعيد حسن البحيري إلى التصريح قائلا: " وهكذا يختلف، بل يناز علم لغة النص عن فروع العلم الأخرى التي تعني بالنصوص أيضا، و لكن على أنها ليست إلا مصادر لمعلومات ذات طبيعة مضمونيه معينة، وطبيعة شكلية محددة أحيانا أيضا، في حين يعني – هو – بمضمون النصوص، على أنها ليست إلا نتيجة لقواعد دلالية و تداولية، كما أنه يركز على ظروف إبداع تراكيب النصوص"24. في حين يبحث علم النص في التعامل مع بنية دلالية كبرى، بنية مجردة قد تركبت من أبنية صغرى، غير أنها ذات وظيفة جوهرية في التفسير، إنه يتصدى لدراسة النصوص المختلفة و أبنيتها، و وظائفها بمعايير علمية مشتركة، على أن الأبنية العليا و الأبنية الدلالية الكبرى للنصوص، والتي تتميز كل واحدة منهما بخاصية مشتركة، فلا يتحددان بالنسبة لجمل أو لمتتالية معزولة من الجمل، و إنما بالنظر إلى النص كله أو إلى أجزاء كبيرة منه على الأقل"؛ فالبحث في لسانيات النص بحث عن المضمون - وفق رؤيته- ولكن من أجل ذاته، بوصفها ناتجا عن استخدام أشكال

محددة وفق قواعد محددة، وعلم النص يشمل ذلك وأكثر.

2. نحو النص: وهو الاسم الذي اتخذته العديد من الدراسات والأبحاث النصية، التي تشكلت وحددت مسارها بمفاهيم لسانيات النص: الاتساق والانسجام، لارتباطها الوثيق بالمستوى النحوي/ التركيبي؛ فجاءت هذه الدراسات لتؤسس لاتجاه "نحو النص" الذي عبر عن أصالته وبحث عن تأصله لارتباطه بالموروث النحوي، الذي ارتبط بوصف بنية الجملة (أصلها وفرعها)؛ "والنحو النصي هو ذلك الاتجاه الذي يفصح ويكشف عن خبايا المباني اللغوية، وطريقة ارتباطها بالمعاني والدلالات العقلية والنفسية، وبهذا فمهمة النحو أن يجلي عبقرية النظام اللغوي في النص، وقدرته على التعبير الدقيق من خلال وسائل التماسك النصي لفظا ومعنى"25، وهدفه الوصف والدراسة اللغوية للأبنية النصية، وتحليل المظاهر المتنوعة لأشكال الترابط النصي.

و"نحو النص" هو المصطلح الأكثر اقترابا من تحقيق الهدف وتوضيح صور التماسك والترابط على مستوى النص، يبحث بشكل منتظم في العلاقات بين الجمل المتوالية داخل نص ما، وبين الأبنية الكبرى الأساسية الممكنة للنصوص؛ لأن أهم مهمة لنحو النص هي صياغة قواعد تمكننا من تحديد كل النصوص النحوية في لغة ما بوضوح وإمدادنا بوصف للأبنية الكبرى والصغرى، كما يجب على النحو النصي، أن يعد شكليا "المقدرة اللغوية لمستخدم لغة ما على إنتاج عدد لا نهائي –على نحو ممكن- من النصوص؛ لأن نحو الجملة القائم لم يقدم إلا نماذج غير كاملة لهذه الكفاءة اللغوية"26 التي يجب على نحو النص توظيفها بشكل ينسجم مع نحو الجملة، ويعني هذا أن نحو الجملة يشكل جزءا كبيرا و جوهريا من نحو النص، وهذا الأخير جزء لا يتجزأ من لسانيات النص، رغم أنه فهم، عند العديد من الدارسين على أنه "لسانيات النص". يقول أحمد عفيفي: "... لسانيات النص تعني: علم لغة النص، أو نحو النص"27. وهذه الرؤية تبرز عند سعد عبد العزيز مصلوح وتمام حسان*، في تنظيرهما لهذا الاتجاه وبحثهما عن أصوله في موروثنا النحوي، وامتد ذلك إلى الباحث أحمد عفيفي**

كتب الدكتور سعد مصلوح بحثين عن مناهج البحوث والدراسات العربية، في هذا المجال؛ الأول: "العربية من نحو الجملة إلى نحو النص" سنة 1990، يعالج فيه الدارس قضية الانتقال التي شهدها الدرس النحوي، من الجملة إلى النص، إذ يرى كما رأى سابقوه ممن دعوا إلى نحو يتجاوز الجملة إلى ما فوقها (النص)، إن نحو الجملة قد هيمن على صياغة القواعد في جميع لغات العالم ذات النحو المكتوب حتى بدايات النصف الثاني من القرن العشرين، ومكمن الخطر في نظر الباحث في النحو العربي أن قضية نحو النص تتجاوز انعدام التحليل النحوي للنصوص، إلى انعدام الإحساس بالحاجة إليه أصلا، يقول: "إننا ننوط بهذه النقلة تحقيق المرجو من الخروج بالنحو العربي مما نحسبه أزمة أخذت بخناقه كابحة لدوره الفاعل في دراسة العربية ونتاجها وإبداعاتها الأدبية"28، ليردف تأكيدا على ما قال: "إن النحو العربي هو أبعد شيء من أن يكون نحوا جمليا موفقا، بله أن يكون صالحا بصورته هذه، لأن يكون نحوا نصيا"29 .

كما ناقش في كتابه الذي وظف فيه المقولات النظرية التي طرحها في مقاله المنشور بعد مقال أستاذه تمام حسان، المعنون:" نحو الجملة ونحو النص"، والتي أراد أن يؤكد من خلال تحليله للقضايا التي توصل إليها عام 1990، والتي توصل إليها الدارسون قبله في هذا المجال؛ ويخضع نحو الجملة إلى رعاية المواقف اللغوية والاطراد والإطلاق والاقتصار والمعيارية*، في حين يبتعد نحو النص عنها، إذ يقوم على دراسة العلاقات بين أجزاء النص كاملا، يقول تمام حسان: " فنحو النص أبعد ما يكون منها (أي المعيارية)؛ لأنه نحو تطبيقي غير نظري، فلا ينشأ إلا بعد أن يكتمل النص، وبعد أن يكون النص حاضرا ومعرضا لتطبيق النحو عليه مستخرجا من مادته"30؛ فالمعيار في نحو النص يكون دائما من داخل النص، لا من خارجه، ونحو النص يقوم أصلا ويتحقق على دراسة العلاقات النحوية والدلالية بين أجزاء النص كاملا.

وهكذا دخل نحو النص ونحو الجملة في صراع كبير، تداولته العديد من الدراسات اللسانية؛ اتجاه يقول إن نحو الجملة منفصل عن نحو النص انفصالا تاما، من قبيل الكيانات

المختلفة، والماهية المنتمية إلى أصناف شكلية متباينة مما يجعل العلمين منفصلين متقابلين واتجاه آخر يقول بأن بين المجالين علاقة اشتمال؛ باعتبار أن النص مشتمل على الجملة؛ فكل ما دخل في موضوع نحو الجملة هو أيضا داخل في موضوع نحو النص، ولكن ذلك لا ينعكس، حسب رأي ويرير (Wirer)31، فنحو الجملة يختلف عن نحو النص، والدارس المتمعن، يلحظ علاقة ضاربة في جذور العلمين، لأننا ندرس جملا ومتواليات جمل من أجل الوصول إلى عالم النص، وبنيته الكاملة، وكشف علاقاته، فوصف النص من وصف الجملة وليس العكس. وعلى الرغم من الفصل بين المجالين إلا أن لهما نقاطا مشتركة؛ لأن نحو النص لا يرفض نحو الجملة رفضا مطلقا إنما يقف به عند هذا الحد، كأنه العلاقات داخل الجملة الواحدة ومتجاوزا ذلك إلى مسرح النص على اتساعه32، وتبقى علاقة نحو النص ونحو الجملة متوترة خاضعة لحدود متحولة يتحكم فيها التطور الفكري والارتقاء اللساني.

أما البحث الثاني، فهو مقالته الشهيرة المعنونة بـ"نحو آجرومية للنص الشعري"* وهي دراسة تطبيقية/ أو ممارسة إجرائية، لمفاهيم لسانية نصية، استوعبها الدارس وحاول من خلالها استنطاق قصيدة جاهلية للشاعر المرقش الأصغر والملاحظ استعمال الدارس لمصطلح "آجرومية" مستدعيا إياه من الموروث النحوي، و قد انبثقت آجرومية سعد مصلوح-كما أوردها- من رحم البنيوية الوصفية القائمة على آجرومية الجملة في أمريكا المتجاوزة لها إلى ما أكبر منها (النص)، معتمدا في محاولته التطبيقية على ما تقدم به فان ديك في نحويته النصية، وعلى تعريفات دي بوقراند و دريسلر للنص والنصية، والتي يراها تجربة لجانب من الفروض والإجراءات التي" تشكل فكرة آجرومية النص (Text grammar) (= نحو النص =لسانيات النص **(Text linguistics)) على النص العربي (في الشعر خاصة) ولا يخفى ما يحف بتلك الغاية من صعوبة، يتصل بعضها بمفارقة المعالجة للمألوف والمتوقع، وبعضها بتطويع آجرومية النص بما هي إنجاز لساني معاصر لدراسة نص عربي أولا، وشعري ثانيا وجاهلي ثالثا"33.

وهذا نابع من إيمان الباحث بمد جسر التواصل بين النمط الوافد والموروث النحوي* إذ يقول: "إن البدء من الصفر المنهجي في هذا المقام يعني إهدار أربعة عشر قرنا من النتاج اللساني المتميز، الذي هو إنجاز قوم هم أعلم الناس بفقه العربية وأسرار تركيبها وذخائر تراثها، وما يكون لنا حقا، إذا كنا من أولي الألباب، أن نلوي رؤوسنا إعراضا عن كنوز هي عمر هذه الأمة، ومركب جوهري من مركبات ثقافتها"34. وعلى الرغم من ذلك التساوي الذي منحه الباحث لمصطلحي لسانيات النص ونحو النص، يلمس القارئ روحا أسلوبية طغت على هذه الدراسة التطبيقية، إلا أننا نلمح في الدراسة التطبيقية إدراج قراءة تحليلية لظواهر أسلوبية هي: الالتفات والتجريد، حتى التكرار، فكأن الباحث يدرس نص الشاعر من وجهة رأي أسلوبية لا لسانية نصية وكذلك الجناس الذي نلمس إقحامه في هذه الدراسة النحوية النصية، ولكن تبقى هذه المقالة هاديا لكل قارئ باحث يتجرأ على طرق باب البحث النصي، في سبيل استظهار بنية النص اللغوية، والكشف عن أسرارها الأدبية والشعرية، تحقيقا لتداولية شعرية بين المبدع والقارئ .

وقد ترافق هذا البحث مع بحث نظري للدارس الأزهر الزناد، عام 1991، وهو "نسيج النص" (بحث فيما يكون به الملفوظ نصا)، وهي دراسة نظرية، لاستقصاء مفهوم النص من اللسانيات البنيوية، التي أبرز من خلالها وبطريقته الخاصة كيفية تجاوز الجملة إلى الملفوظ أو النصوص بمختلف أحجامها، دون إهمال الاعتبارات اللفظية والتركيبية والاعتبارات المعنوية و المقامية في تقدير أشكال التعبير وإجراءاتها لأن النص كما يقول الزناد: "لا يخضع لقواعد معيارية مثل الجملة، وهو من هذه الزاوية يفلت من الضبط، لا لأنه يعسر ضبطه، وإنما لاختلاف المعايير الضابطة له في التصور القديم عن ضوابط الجملة وبتوحيد تلك المعايير من حيث النوع، أي بجعلها مجردة بما فيه الكفاية، متعلقة بالبنية النصية التي تقاربها بنية الجملية، يدخل النص –بها-تحت طائلة الضبط"35، وكل ذلك في إطار إقامة وضع نحو عام للنص العربي، بأسس علمية، أدبية، نثرية وشعرية، تقوم أساسا على فكرة " نحو النص" المستوعب " نحو الجملة " وقواعد الربط الزمنية و الإحالية

والتركيبية، كما أوردها الدارسون اللسانيون36، ومنحها شعاعا تأصيليا لبعض تلك القضايا وفق ما يسمح به المقام؛ إذ يرى التقيد بوسائل نحو الجمل، وقصور الدرس اللغوي عليها "مأزق" لا بد من تجاوزه –مؤكدا بذلك فكرة سابقيه – بأنّ "نحو النص"، يقوم على النحو الأول، ولكن يختلف عنه رؤية ومنهجا؛ لأن "الجملة وحدة نظرية نظامية من وحدات اللغة والنص وحدة تعددية بمعطيات تداولية غير لغوية"37 .

لقد منح النحو النصي دورا كبيرا في تفسير النص، عبر نظرة شاملة ومنهج متكامل لأنه يهتم في تحليلاته بضم عناصر جديدة، لم تكن موجودة في نحو الجملة، إذ يذهب في تحليله إلى قواعد جديدة منطقية ودلالية تركيبية، فيقدم – بذلك – شكلا جديدا من أشكال التحليل لبنية النص، من خلال البحث في علاقات التماسك النحوي النصي وأبنية التطابق والتقابل والتراكيب المحورية والتراكيب المجتزأة، وحالات الحذف والاستبدال والإضمار والجمل المفسرة وإحالة الضمير، والربط والفصل و التوازي والتكرار، وغيرها من الأمور التي تخرج عن إطار الجملة فلا يمكن تفسيرها إلا من خلال وحدة كلية كبرى، لأن " نحو النص بالنسبة لأي لغة بعينها هو أكثر شمولا وتماسكا واقتصادا من النحو المصور في حدود الجملة"38 .

وخلاصة الأمر إن "نحو النص" في الدرس العربي، مازال مفتقرا إلى إثبات هوية بشكل نهائي، وتحديد ملامح صورته مقارنة بفروع اللسانيات الأخرى، إنه يتطور بشكل سريع، ولم يستقر بعد على شكل نهائي، ولهذا فإن حصر موضوعاته بشكل نهائي جامع مانع فوق إمكان الباحث، لاختلاف المناهج والمدارس اللغوية، التي ساهمت في تشكله وتأسيسه، أما الأسس التحليلية، فلم تستقر بعد، أي أنه نمط من التحليل ذو وسائل بحثية مركبة، تمتد قدرتها التشخيصية إلى مستويات ما وراء الجملة ذات الطابع التدرجي يبدأ من علاقات ما بين الجمل، ثم الفقرة، ثم النص والخطاب بتمامه39، بالإضافة إلى فحصها لعلاقة المكونات التركيبية داخل الجملة الواحدة .

3- لسانيات النص:

وبين أبحاث علم النص الشاملة، ذات النظرة الكلية، التي تبحث في البنيات النصية الكبرى والصغرى، والربط والتماسك والتداول ..، وبين نحو النص الساعي إلى تحديد هذه الشمولية؛ بالتركيز على قضايا الربط والتماسك، ظهرت أبحاث أخرى تصب في صلب اهتمام لسانيات النص كونها فرعا معرفيا جديدا، اعتمدت المصطلح "لسانيات النص" ذاته أو مصطلحي "علم لغة النص" و"اللسانيات النصية"، وهي دراسات تنطلق من النص وتسعى إلى التمييز بينه وبين المصطلحات الأخرى التي تسير معه في نفس النظام، وتبحث في ماهيته، التي تتيح لنا قراءة النص، وفهمه واستيعابه، ومن ثمة تأويله، وقد أخذ بعضها على عاتقه النص وتحديداته، و التزم آخر بقضية التماسك وتحققه، وما يرتبط به من قريب أو بعيد مع القضايا الأخرى اللغوية وغير اللغوية واعتمدت ثالثة نتائج البحث الألماني/الانجليزي، ممثلة في دريسلر و دي بوقراند حول النصية، والمعايير النسبية، لتنطلق منها في سبيل دراسة النصوص العربية على اختلافها وتنوعها .

ويمكن أن يكون أول بحث عربي-يمس هذه المبادرة- والذي يستعمل فيه بعض أدوات لسانيات النص كتاب محمد خطابي(لسانيات النص-مدخل إلى انسجام الخطاب) والذي نعتبره فاتحة لسانية نصية عربية، تجمع التنظير والتطبيق، وفيه حاول الدارس بحث قضية الانسجام والاتساق، بما جاء في الوافد الغربي، ممدا لها جسور الصلة والمثاقفة، بما أفرزته البلاغة العربية، وكتب التفسير القرآنية؛ ليحاول تطبيق مبادئ هذه القضية من إحالة وحذف وتكرار على "فارس الكلمات العربية" للشاعر أدونيس (علي أحمد سعيد) .

يقول خطابي : "يحتل اتساق النص وانسجامه موقعا مركزيا في الأبحاث والدراسات التي تندرج في مجالات تحليل الخطاب ولسانيات الخطاب/النص، ونحو النص، وعلم النص، حتى أننا لا نكاد نجد مؤلفا ينتمي إلى هذه المجالات، خاليا من هذين المفهومين (أو من أحدهما)، أو من المفاهيم المرتبطة بهما كالترابط و التعالق ومشاكلهما"40؛ فيجعل خطابي

لسانيات النص علما يقوم على هذين المفهومين؛ لأنهما الدعامتان في كل البحوث النصية ولعل السبب في هذا الحكم، اعتماده على آراء هاليداي وحسن في كتابهما" الاتساق في الانجليزية"(Cohésion in engliche) وكتاب "تحليل الخطاب" لبراون ويول، وكتابي (فان ديك)؛ "النص والسياق" و"علم النص"، فهذه الكتب أكدت وفعلت الرأي القائل بالتنظير القوي والإنجاز الأقوى وفق رؤية خطابي، ولعله الأمر الذي يفسر ويبرر الاضطراب الحاصل للمصطلح في قوله .

أما الباحثان "إلهام أبو غزالة" و "علي خليل محمد"، في كتابهما "مدخل إلى علم لغة النص " 1992، فيعتمدان نظرية روبرت دي بوقراند و دريسلر؛ ليحاولا تطبيقها على نصوص وأشباه نصوص (أي أمثلة) قديما وحديثا، شعرية ونثرية، علمية وأدبية، لا يهم فالهدف من تأليفها الكتاب فهم النظرية، وفهم لسانيات النص، ومن ثمة الآليات الإجرائية التي وضعاها من أجل النفاذ إلى دلالات النص المعرفية والنفسية واللغوية وقد استغل الدارسان العربيان كل ذلك لتطبيقه على نص من القرآن مع مقارنة التحليل النصي بتحليل عبد القادر الجرجاني له، مع الاقتناع التام أن "لسانيات النص علم حديث نسبيا"41.

ليستفيد "سعيد حسن بحيرى" من كل تلك المحاولات التي زاوجت بين التنظير والتطبيق، والتي رآها تحاول النفاذ إلى أفكار الآخر في هذا المجال، فيؤلف كتابا يشرح فيه "نظريات لسانيات النص " ومهام هذا العلم، واتجاهاته بكتب أصحابه وبلغتهم، خاصة الألمانية، في كتابه "علم لغة النص المفاهيم والاتجاهات"، 1993، وهو من أهم كتب لسانيات النص، ومن الدراسات الرائدة في هذا المجال، والذي يراه(علم لسانيات النص) بحيرى علما خصبا يتداخل ويتكامل مع علوم أخرى، بحيث يمكن أن يشكل أدواته في حرية تامة ثم تصب نتائج تحليلاته في هذه العلوم، فتزيدها ثراء .

يقول بحيرى عن لسانيات النص وحالها في الدرس اللغوي:" يتسم هذا العلم أيضا بتشعبه إلى حد بعيد؛ إذ لا نجد إلا قدرا ضئيلا من الاتفاق حول مفاهيمه، وتصوراته

ومناهجه، فقد استوعب حدا لا يستهان به من المفاهيم، نظرا لكثرة منابعه واتساع مشارب الباحثين فيه، كما أنه قد قصرّت أكثر المحاولات التي نهضت لضم تصوراته في أطر محددة، عن تقديم عرض متكامل، يتيح للقارئ الوقوف عند نظرة كلية أساسية، وأخيرا كان لتعدد مناهجه واتخاذها مسارات متباينة في بلدان مختلفة أكبر الأثر في أن تبوء كل محاولة تستهدف نوعا من التقريب بينها بالفشل"42، لأسباب عديدة أهمها؛ أن اتجاهات البحث فيها قد أخذت أشكالا عديدة لاختلاف أسس قيامها؛ فمنها ما اعتمد اللسانيات الوصفية، بإضافة مفاهيم وتصورات جديدة تتناسب والمقام، وقامت أخرى على اللسانيات الوظيفية، وثالثة على اللسانيات البنيوية، ورابعة على اللسانيات التوليدية التحويلية وهلم جرا.

فقد حاول الباحث –في كتابه- استكناه خصائص التحليل اللساني النصي، و إبراز الرؤى والنظريات الفاعلة في هذا العلم الموسع، محاولا – أثناء ذلك تحديد أهم مفاهيمه المختلفة (النص- بنية النص – الترابط- التنظيم- النصية – تجاوز الجملة...). كما جاءت على لسان أصحابها في أبحاثهم ودراساتهم المختلفة، أمثال: كوزريو، بتوفي، دريسلر، قراند، هاين منه، فيهيفيجر فاينريش، هارفج وغيرهم، ليكون الأمر أكثر دقة وعلمية، فكان كتابه مرجعا لكل باحث في هذا المجال –لا يمكن تجاوزه .

بعد هذه المجموعة من الكتب التي يمكن عدّها أساسا للسانيات نص عربية، توالت الدراسات والأبحاث (كتبا ومقالات) في هذا العلم، بعد استوائه على عوده، و بعد أن عرفت مجالات البحث فيه ، وعرفت أهم قضاياه، وهي دراسات- نراها- تقوم على ما فات في سبيل توضيح وإبراز هذا المجال، وتطويعه في اللغة العربية برؤى حديثة أصيلة، وواعية ومستوعبة للتنظير الغربي، ذات طموح جامح لتكون تطبيقية بعد إدراك الأمور النظرية.

وبعده، وفي مجال غير بعيد يضع الباحث "جميل عبد المجيد" في كتابه البديع بين البلاغة العربية واللسانيات النصية، 1998، بعد أن يبرز الدارس مفهوم لسانيات النص

وموضوعها، وكيفية تحقق النقلة التي ساهمت في تأسيسها، مرتكزا على مفهومي السبك (cohésion) والحبك (Cohérence) – معتمدا ترجمة سعد مصلوح- وقد خص بحثه قضية البديع وأهم آلياته: السجع، والتكرار، والتصدير، والتوازي..، وبالطرح نفسه عند البلاغيين القدامى أمثال: الجاحظ (ت 255هـ) والقاضي الجرجاني (ت 366 هـ) والعسكري (ت395هـ) ، والباقلاني(ت 403هـ)، وعبد القاهر الجرجاني (ت 471 هـ) و السجلماسي (ت 704هـ)، وابن المعتز (ت 704هـ)وابن الأثير (ت 737هـ)43 وغيرهم ليربط الدارس مقولات هؤلاء بما جاء في نظريات علماء لسانيات النص في قضايا التكرار التصدير، التوازي والتقسيم وغيرها من القضايا التي تساهم في ترابط النص اتساقا وانسجاما.

كما نجد في كتابي "صبحي إبراهيم الفقي" و "عزة شبل محمد"، المعنونين بالعنوان ذاته "علم لغة النص بين النظرية التطبيق"،على الرغم من اختلاف الدراسة، سعيا إلى بحث الأسس الابستيمولوجية للسانيات النص وموضوعها، وتحديد إطاره ومحاولة تطبيق منهجها عبر مقترحات دريسلر ودي بوقراند، وعن طريق تجسيد مفهوم النصية ومعاييرها: الاتساق، والانسجام، والقصد، و المقبولية، والموقفية، والسياق، و التناص كل بمصطلحات كتابه، التي اعتمدها في التطبيق؛ فالكتاب الأول، يبحث فيه صاحبه تطبيق هذه الآليات على السور المكية للقرآن الكريم، و الكتاب الثاني، تبحث فيه صاحبته تحقيق معايير النصية على المقامات؛ فلقد أدخلت هذه الدراسات وغيرها لسانيات النص -كفرع معرفي جديد- عالم الممارسة والتطبيق، في سبيل قراءة النص وتأوله .

وعلى الرغم مما حققته لسانيات النص العربية في مجالي التنظير والتطبيق، إلا أنها لا تزال تعاني قدرا ما من الاضطراب، كونها لسانيات نقل من الآخر بامتياز، أكثر منها خلق وابتكار ؛ فهي تنطلق لإحداث علاقة ترابط بين قضايا العربية في موروثها العربي البلاغي/النحوي، مع ما أفرزته الحداثة اللسانية، وقد أدى ذلك إلى ظهور حلقة نقدية متأثرة باللسانيات والنظريات المتفرعة عنها، وانقسمت أبحاثها إلى أسلوبية بمناهجها من جهة

وإلى لسانيات نص بنظرياتها، فعادت بطريقة وبأخرى إلى مباحث لسانية وجدت لنفسها إطلالة في موروثها العربي على تنوعه .

ولعل الأمر في التعامل مع لسانيات النص مصطلحا ومفهوما، وتنظيرا و إجراء يعود إلى صعوبة إدراك المادة ذاتها في هذا العلم، الذي تشرح مفاهيمه ونظرياته في قدر كبير من التجريد والتعقيد النموذجي على الرغم من التطبيق والإجراء، ويستهدف في أبعاده المنهجية غرضا شموليا عاما، يسعى إلى وصف جميع النصوص الممثلة للغة البشرية متجاوزا فيها مراعاة التفاصيل والخصوصيات، في مرحلة التعريف بها والاعتراف بوجاهتها في مجال الدرس اللساني بشكل عام وفي مجال الدراسات الأدبية والنقدية والبلاغية بشكل خاص من جهة، وما تسببه إشكالية المصطلح اللساني –فيها- من تشويش في الإفهام وإرباك في التحميل لدى الدارسين، من جهة أخرى، وهو ما حقق اضطرابا ملموسا محسوسا في هذا المجال الخصب، في أرض ميلاده، ومن ثمّ في اختيار المصطلح العربي المقابل لها في الدرس العربي، ذلك أنّ انتماء المصطلح إلى حقل دلالي_معرفي محدد يترتب عليه أن ينتظم في تعالقات خصبة تؤسس الإطار العام له كمصطلح.

كما أنّ شحن المصطلح القديم، بدلالة جديدة مغايرة لدلالته الأصل أو نقل مصطلح ذي دلالة محددة، ضمن ثقافة ما إلى ثقافة أخرى، أفضى في الثقافة العربية الحديثة، إلى اضطراب كبير، قاد إلى غموض في دلالة المصطلح وسوء واضح في استعماله، وترتب على ذلك، أن تعرضت فعالية الإرسال والتلقي إلى خلل بيّن، وخضعت في كثير من الأحيان لجهل وتنطع الأدعياء، الأمر الذي أسهم في كثير من حقول المعرفة إلى شيوع ضروب من الممارسات التي تفتقر إلى أبسط مقومات العلم، بإجراءات المصطلح ، وإجراءات المنهج ورافق ذلك انعدام أية مراجعة جادة لتلك الممارسات المضطربة، مما جعل الإشكالية مرّكبة تتعلق بأصول المصطلح ومصادره، ومفاهيمه، وممارساته، وتطوراته فيما يخص الشكل والدلالة وكل ذلك أجهز على كثير من المحاولات الخصبة في حقل المعرفة .

فالحال العلمية عندنا تشكو عديد الأمراض منها: التكديس بدل التنظيم، والجمع بدل البناء

والتقليد عوض الاجتهاد، والفردية بدل الجماعية، والارتجال بدل التخطيط، والفوضى عوض النظام، وغير ذلك من المظاهر المرضية التي تعرقل سير البحث العلمي، والتي ساهمت بشكل فعال في فوضوية البحث على كل المستويات (المصطلح والمنهج والمعلومة..)، وإزاء كل هذا هل سيحدث الدارس أو الباحث العلمي العربي لحظة التصالح مع الذات، ويحقق نقطة نظام بناءة، ليفكر قبل السير في عملية السير ومراحله وكيفية تحققه وآلياته، الأمر الذي يدفعه إلى الاجتهاد والتحكم من المعلومة قبل إصدار الأحكام، أم أننا سنظل سائرين وكفى وحسبنا أننا نسير.

ولأسباب لا يمكن لأي دارس حصرها، والتي كان لها الأثر البارز في حدوث هذا الاضطراب، إذ يمكن لاختلاف فهم النظرية كما وضعت في الدراسات الغربية، أن يكون سببا في خلق تفاوت في درجات تلقي هذا الوضع من مبادئ ونظريات، وربما لأن الترجمة العربية قد انطلقت من مبادرة فردية تؤسس لموقف الاختيار الحر، و لا يهمها توحيد المصطلح اللساني النصي ما يعيق أي مبادرة في هذا الشأن، وربما لغياب هيئات متخصصة ذات مبادرة جماعية، يكون لها حق مراجعة المصطلح المترجم واختياره وتثبيته، وربما أسباب عديدة كان لها الصدى البالغ في زرع هذا الاضطراب و هذه الفوضى المصطلحية التي وجدناها كالطوفان تغرق كل المؤلفات اللسانية النصية؛ العلم ليس هو المعارف المتراكمة والمعلومات المكدّسة، لأن"المعرفة خلاصة الممارسات العقلية للإنسان تتشكل ضمن أطر ثقافية وحضارية محددة، وتدخل في علاقة حوار ومثاقفة مع أطر ثقافية وحضارية أخرى"44؛ فلابد إذن من استيعاب المعلومة أولا- وهذا جزء من المنهج- ومن ثمة يتحقق فعل التحليل والتعليل والتركيب، وبغير المنهج القويم لا يمكن أن يستقيم للبحث العلمي سير، وهي مسألة لمّا تعط حظها من العناية والاهتمام .

إحالات البحث :

1 - Katie walls , a dictionary of stylistics Pearson education, Edinburgh ate , Harlan, England, 2001. ,p392 .et; -Shirley carter Thomas, La cohérence textuelle (pour une nouvelle pédagogie de l'écrit), langue &parole, L'harmattan, Paris, France, 2000,.p 18

2- الجلالي كدية، الترجمة بين التأويل والتلقي، ندوة الترجمة والتأويل، جامعة محمد الخامس، كلية الآداب، الرباط، المملكة المغربية، ندوات ومناظرات، رقم 47، 1995، ص52.

3- نهاد رزق الله، دراسات منهجية في تحليل النصوص، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، ط1، 1404هـ/ 1984، ص 10.

4- سعيد يقطين، انفتاح النص الروائي (النص والسياق)، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط2، 2001، ص 14.

5- ينظر: كلاوس برينكر، التحليل اللغوي للنص، مدخل إلى المفاهيم الأساسية والمناهج ترجمة : سعيد حسن بحيرى، مؤسسة المختار، القاهرة، الطبعة الأولى، 2005، ص11 .

* يمكن ترجمة المصطلح إلى " نظرية النص" أو" تنظير النص".

6 - فان ديك، علم النص –مدخل متداخل الاختصاصات، ترجمة وتعليق: سعيد حسن بحيري، دار القاهرة للكتاب، مصر، ط1، 2001، ص11 .

7 - المرجع نفسه، ص07 .

8 - واورزيناك زيتيسلاف، مدخل إلى علم النص- مشكلات بناء النص-، ترجمة سعيد حسن بحيرى، مؤسسة المختار للنشر والتوزيع، القاهرة، ط1، 2003، ص35.

9- روبرت دي بوقراند، النص والخطاب و الإجراء ، ترجمة :تمام حسان، عالم الكتب القاهرة، الطبعة الأولى، 1998، ص 628 .

10- أحمد أبو حسن، نقل المفاهيم بين الترجمة والتأويل، نقل مفاهيم نظرية التلقي، الترجمة والتأويل، ص84.

11- فرحان بدوي الحربي، الأسلوب في النقد الحديث –دراسة في تحليل الخطاب – المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع ، ط1، 2004، ، ص38.

12- حسام أحمد فرح، نظرية علم النص (رؤية منهجية في بناء النص النثري)، مكتبة القاهرة، ط1، 2007، ص87.

13 - ينظر: محمد العبد، اللغة والإبداع الأدبي، دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع القاهرة، 1989، ص36.

14 - المرجع نفسه، ص36.

15 - محمد العبد، اللغة و الإبداع الأدبي،ص 34.

16- صلاح فضل ، بلاغة الخطاب وعلم النص، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب الكويت، العدد 164، صفر 1413هـ/ آب 1992م، ص311 .

17- المرجع نفسه، ص319.

18 - فان ديك، علم النص، ص19.

19- ينظر: عبد الله الغذامي، الخطيئة والتكفير – من البنيوية إلى التشريحية- قراءة نقدية لنموذج اللساني معاصر، مقدمة نظرية ودراسة تطبيقية، النادي الأدبي الثقافي، جدة، ط1، 1985،ص26.

20 - حسام أحمد فرج، نظرية علم النص، ص16. وينظر: صلاح فضل، بلاغة الخطاب وعلم النص، ص331.

21 - أحمد فرج، نظرية علم النص، ص24.

22 صلاح فضل، بلاغة الخطاب وعلم النص، ص250.

23- ينظر: حسام أحمد فرج، نظرية علم النص، ص16-17.

24- سعيد حسن بحيرى، علم لغة النص-مفاهيم واتجاهات، الشركة المصرية العالمية للنشر الشركة المصرية العالمية للنشر، لونجمان، القاهرة، الطبعة الأولى، 1997م، ص120 .

25 - أحمد عفيفي، نحو النص (اتجاه جديد في الدرس النحوي)، مكتبة زهراء الشرق، القاهرة، ط1، 2001، ص09.

26 - ينظر فان ديك، علم النص، ص 45، 46. وينظر: سعيد حسن بحيرى، علم لغة النص، ص222.

27 - أحمد عفيفي، المرجع نفسه، ص32.

* في بحثه "نحو الجملة ونحو النص"(1995)، وهو في الأصل محاضرة ألقيت في معهد اللغة العربية بأم القرى، مكة المكرمة في الموسم الثقافي الصيفي لعام 1995.

**من الدراسات أيضا في هذا المجال، مؤلف لـ"أحمد عفيفي" موسوم بـ"نحو النص"، وهو كتاب صغير الحجم، يحاول الباحث من خلاله إنجاح هذه المحاولة التأسيسية، التي زاوج فيها بين التنظير والتطبيق، فحاول توضيح مجمل آراءه بأمثلة،إنه نحو غير تقليدي، حرص المؤلف على توضيح كيفية ظهوره وتطويره، ومدى إمكانية استغلاله من أجل دراسة النص الأدبي .

28- سعد عبد العزيز مصلوح في اللسانيات العربية المعاصرة (دراسات ومتناقضات) عالم الكتب، القاهرة، 2004، ص221.

29 - المرجع نفسه، ص222.

* الاطراد : هو ثبات القاعدة في الحكم على الفصحى، وما خرج عنها شاذ. أما الإطلاق فهو أن نطلق القاعدة؛ لتصدق على كل ما قيل أو سيقال. والاقتصار، هو صفة تحيل على بحث العلاقات في حدود الجملة الواحدة دون تجاوزها إلا عند إرادة معنى الإضراب أو الاستدراك أو غير ذلك من الدلالات التي يمكن لها أن تربط بين الجملتين. والمعيارية: القاعدة في نحو الجملة هي أساس الصحة أو الخطأ، وهذا أساس توجب مراعاته في أي جملة و أي قول.

30 - سعد عبد العزيز مصلوح، في اللسانيات العربية المعاصرة، ص217.

31 - محمد الشاوش، أصول تحليل الخطاب في النظرية النحوية العربية-تأسيس نحو النص-، جامعة منوبه، المؤسسة العربية للتوزيع، تونس، 2001، ج1 ، ص100.

32 - أحمد عفيفي، المرجع نفسه، ص92. وينظر:

Hallyday & R. Hassan, Cohesion in English ; p299.

* أعاد الدكتور سعد عبد العزيز مصلوح نشر هذه المقالة كاملة دون نقصان، ولا زيادة، و لا تنقيح في كتاب "ضم مجموعة من مقالاته بعنوان "في البلاغة العربية والأسلوبيات اللسانية"، وهو ما اعتمدناه في بحثنا.

**رأينا في هذه المساواة مغالطة كبرى في حق الدرس اللساني، لأننا نرى أن نحو النص مختلف عن لسانيات النص، بل هو جزء منها، فنحو النص هو البحث في قضايا الربط والحذف والإحالة...الخ من الأدوار النحوية بينما اللسانيات هي البحث في قضايا الربط (جميعها) والدلالة والمعجم والسياق، أي النظر إلى النص من جميع النواحي، فتتعدى الجانب النحوي إلى ماهو دلالي، بلاغي تداولي، وتساهم في تشكله، لا دراسة بنيته النحوية فحسب.

33 - سعد عبد العزيز مصلوح ، في البلاغة العربية والأسلوبيات اللسانية آفاق جديدة عالم الكتب، القاهرة، 2006، ص224.

*يذكر سعد مصلوح أن الدعوة إلى نحو النص قد ترددت في عملتين سابقتين هما: الأسلوب دراسة لغوية إحصائية، الذي صدر في الكويت 1980م، و بحث (مشكل العلاقة بين البلاغة العربية و الأسلوبية اللسانية) ضمن ندوة قراءة لتراثنا النقدي، في نادي جدة الأدبي الثقافي عام 1988م في كتاب النادي الأدبي الثقافي بجدة العدد 59، و هو يشيد في هذا البحث بلفتة بارعة لأمين الخولي في تاريخ متقادم يعود إلى عام 1947م، في كتابه "فن القول-مناهج تجديد في النحو والبلاغة والتفسير والأدب"، والتي أشار فيها إلى وجوب مجاوزة حدود الجملة إلى النص في الدرس البلاغي، و يذكر أن هذه اللّفتة قد

وجدت صدى على صعيد النظر عند أحمد الشايب في كتابه الأسلوب الصادر في طبعته الأولى 1939م غير أنه لم يلتفت إليها على صعيد التطبيق.

34 - المرجع نفسه، ص224، 225 .

35 - الأزهر الزناد، نسيج النص، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب،ط1، 1991،ص20 .

36 - ينظر: الأزهر الزناد، نفسه، ص18، 19 .

37- ينظر: محمد الشاوش، المرجع نفسه، ص92، 93 .

38 - أحمد عفيفي، نحو النص، ص39.

39 - أحمد عفيفي، المرجع نفسه، ص55، 56 .

40 - محمد خطابي،لسانيات النص (مدخل إلى انسجام الخطاب) ،المركز الثقافي العربي ، الدار البيضاء، ط2، 2006، ص05.

41 - إلهام أبو غزالة وعلي خليل حمد، مدخل إلى علم لغة النص، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ط2، 1999، ص 54 .

42 - سعيد حسن بحيرى، علم لغة النص، ص 02 .

43 - ينظر: جميل عبد المجيد، البديع بين البلاغة العربية واللسانيات النصية، جميل عبد المجيد، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، 1998، ص 14، 25 .

44- عبد الله إبراهيم، الثقافة العربية والمرجعيات المستعارة(تداخل الأنساق والمفاهيم ورهانات العولمة)، المركز الثقافي العربي، المغرب، ط1، 1999، ص95 .